مسامرة إذاعية من إلقاء العارف بالله العلامة القاضي الحاج أحمد سكيرج

ألقاها على أمواج (راديو المغرب) تحت عنوان : الإنتقاد الإصلاحي

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وكل من والاه، والنصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أمير المؤمنين زاد الله في معناه، وبلغه في الدارين متمناه، وهذا دعاء للبرية شامل،

أما بعد، السلام عليكم أيها السادة المستمعون، فقد دعيت في هذه المرة لإلقاء كلمة حرة، فترددت في الموضوع الذي أطرق بابه، وأصادف فيه الإصابة، حيث أن المسامرة على اختلاف أنواعها معروضة لانتقاد المنتقدين، وصاحبها لا يخلو من مادحين وقادحين، ولا ينجو أحد من الخلق، ولو أصاب الحق.

وإذا تحقق الشخص بأنه غير موصوف بالكمال، لم يواخذ المنتقدين عليه بحال، لا في الأقوال ولا في الأفعال، إذ لم يكن صاحب حظ نفساني، ولا بعالم حقاني، وقليل من قليل من أذعن لأهل عصره، لا سيما من كان من أهل مصره.

أولع الناس بامتداح القديـــم وبذم الجديد غير الذميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحي ورقوا على العظام الرميم

لا سيما من كان ذا مزية جليلة، أو خصلة جميلة، من تأليف ونحوه، ولذاك قيل من ألف فقد استهدف.

فيتعين عليه تطمين نفسه باطمئنان صدره في وروده وصدوره، إن كان عارفا بقدره غير جاهل بأموره، وقد ورد في الحديث الشريف : عاش من عرف قدره، وكان يزيد فيه بعض شيوخنا مما لا ينافي معناه فيقول : عاش من عرف قدره، وقدره ما يطيب فيها، ولا شك أن كل كلام فيه المردود والمقبول، إلا كلام الرسول، عليه الصلاة والسلام، عند العارفين من الخلق، ولا كلام مع المكابرين في الحق. وما على السادة المسامرين المنتقد عليهم إلا أن يذعنوا للحق الواضح، فإن الحق لجهل المعاند فيه فاضح، والرجوع إلى الحق حق كما يقول الخليفة الثاني سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالته لأبي موسى الأشعري(1) رضي الله عنه :

---

(1) أبو موسى عبد ا بن قيس بن سليم الأشعري، صحابي جليل، أحد الحكمين اللذين رضي بهما علي كرم ا وجهه ومعاوية بعد حرب صفين، ولد في زبيد ببلاد اليمن عام 21 ق هـ، وقدم مكة عند ظهور الإسلام، فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة، ولما استتب الإسلام ببلاد الحجاز ولاه النبي صلى ا عليه وسلم على زبيد وعدن، توفي رحمه ا عام 44هـ، أنظر ترجمته في الإصابة لابن حجر العسقلاني ت 4889، وفي طبقات ابن سعد ج 4 ص 79، وفي حلية الأولياء لأبي نعيم ج 1 ص 256، وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 114، وفي غاية النهاية لابن الجزري ج 1 ص 442.

ولا يمنعك قضاء قضية بالأمس ثم راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، ومراجعته خير من الباطل والتمادي فيه، وفي معناه يقول محنض الديماني(2) :

ليس من أخطأ الصواب بمخط	إن يؤوب لا ولا عليه ملامه
إنما المخطئ المسيء الذي إن	وضح الحق لج يحمي كلامه

ومع ذلك فتحسن الأسوة بالمنتقد عليهم من المؤلفين المعدود في زمرتهم غالب المسامرين، وقد طرقوا في إذاعاتهم السالفة في هذا القطر المغربي وغيره في أبواب مختلفة المواضع والموضوعات، ما قرطوا به الآذان، وشنفوا المسامع في سائر الجهات، على اختلاف لغاتهم المسموعات.

وكأن المذياع منبر عام للخطب، أو مجلس علم يحضره ذووا الأدب، غير أن جل المسامرين لم يبلغهم انتقاد المنتقدين عليهم في ظهر الغيب، فيجيبونهم بإنصاف من غير اعتناف، ليعم النفع بالانتقاد الإصلاحي، ولم نسمع بمن تعرض لذلك إلا قليلا من قليل، وإن كان البعض من المسامرين يشير إلى شيء مما يستحق الإصلاح، من غير إفصاح ولا إيضاح.

ولقد انتقد علينا في مسامرتنا السالفة التي موضوعها (العلوم والصنائع) بعض الناس في التنويه بالحرف والحث على تعلمها وتعاطيها لمن يريد تحصيل المنافع، قائلا : أن فيما قلناه تزهيدا للناس في طلب العلم، مع ما في ذلك من التعرض للحط من قدر الموظفين من سائر المناصب، على اختلاف الطبقات بالشتم والذم، وقد أدخل علينا هذا المنتقد سرورا كبيرا بانتقاده، وإن لم نوافقه على مراده، لأن الانتقاد لا يخلو من فائدة تستفاد، سيما إن يكن من عالم منصف، أو عاقل غير متعسف، في حال الإيراد والرد، والوقوف بالجد عند الحد، وهو طريق كما قلنا مطروق للأعلام، الناشرين للعلم الأعلام.

وما مقصودنا بالحث على تعلم الحرف وتعاطي الصناعة إلا النصح لطلبة العلم الذين يريدون التحصيل على مرتبات تكفيهم قضاء الضروريات، وإن كان العلم يسوق صاحبه إلى ما فيه نفعه دنيا وأخرى عاجلا وآجلا(3)، كما يقول أبو حامد الغزالي فيما يوثر عنه : طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم أن لا يكون إلا لله.

---

(2) سيدي محنض بابه بن اعبيد الديماني الشنجيطي، من خيرة علماء وأدباء شنجيط، له مؤلفات جليلة تقارب الثلاثين مصنفا، في الفقه والحديث واللغة والأدب والمنطق، وغير ذلك، توفي رحمه ا عام 1277هـ، وعمره 120 سنة، أنظر التعريف به في روض شمائل أهل الحقيقة لابن محم العلوي الشنجيطي، رقم الترجمة 38، وفي الوسيط في تراجم أدباء شنجيط لأحمد بن الأمين الشنجيطي ص 236، وفي فتح الملك العلام للفقيه الحجوجي، بتحقيقنا عليه، رقم الترجمة 53، وفي نخبة الإتحاف لنفس المؤلف رقم الترجمة 384.

(3) يشير رحمه ا من خلال هذا التبرير إلى حاجة طالب العلم للاحتفاظ بماء وجهه، وذلك بالتعفف عن الناس وعدم مبالاته بما في أيديهم من دراهم وغيرها، ولا يكون ذلك إلا بالإحتراف لمهنة تساعده على القيام بمتطلباته الوقتية المتعددة، وهذا خير له وأحسن من أن يكون عالة على غيره، كما يساعده على التركيز في دروسه وإبعاد الوسوسة والتشويش فيها، وعلى هذا المهيع كان الصحابة وغيرهم من أكابر التابعين المشتغلين بتحصيل العلوم والفنون، والحقيقة أن من طالع مسامرة العلامة سكيرج حول العلوم والصنائع يتبين له جليا أن دعوته فيها لم تقف عند هذا الحد، بل تجاوزته هادفة للعمل على الموافقة بين العلم والصناعة، لأنهما في نظره وجهان لعملة واحدة، واليوم ونحن نعيش بداية القرن الواحد والعشرين الميلادي يظهر لنا بجلاء مدى نجاعة هذه المسامرة التي سبقت أوانها بما يقارب قرنا كاملا.

فما على طالب العلم إلا أن يتعلمه، ولا يضره إذا أضاف إلى معلوماته تعلم حرفة، أو تعاطي صنعة تقضي بما يستنتجه منها الضروريات، بغير حط من قدره وقدر علمه، وفي الحديث : ليس منا من لم يتعاظم بالعلم. قال العلماء في معناه : ليس على طريقتنا وسنتنا من لم يعلم أن العلم معظم، ولا يعظمه إلا برفع نفسه عن الطمع ونحوه، وما بسقت أغصان ذل إلا على بزر طمع، ولا يضعه في غير محله، ولله در العلامة الجرجاني(4) حيث يقول : مما يحق أن يتخلق به طالب العلم وبه يصول :

يقولون لي فيك انقباض وإنمـــــا رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من دناهم صار عبدهم ومن أكرمته عزة النفس أكرمـــــا
وما كل برق لاح لـي يستفزنـــــي ولا كل من لاقيت أرضاه مغنمـــا
وإني إذا ما فاتني الأمر لم أبـــت أقلب كفي إثــره مـتـنـدمــــــــا
ولم أقض حق العلم إن كان كلمــا بدا طمع صيرته لي سلــمــــــا
إذا قيل هذا منهل قلت قـــــد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظمـــــا
ولم أبتدل في خدمة العلم مهجتــي لأخدم من لاقيت لكن لأخدمـــــا
أأسقي به غرسا وأجنيه ذلـــــــة إذن فاتباع الجهل قد كان أحزمـــا
ولو أن أهل العلم صانوه صانهــم ولو عظموه في النفوس لعظمــــا
ولكن أهانوه فهان ودنـــســــوا محياه بالأطماع حتى تجهمـــــــا

مع أن العلم معظم في نفسه لا يهان، ولذلك قرأ الإمام ابن السبكي(5) قول الجرجاني هنا (لعظما) مبنيا للفاعل وحذف المفعول، فقال لعظمهم، وكذلك يحسن في قوله (فهان) إسناد الفعل إليهم فيقال : ولكن أهانوه فهانوا، ولله در ابن عطاء الله حيث قال مما يرجع لما قلناه :

---

(4) عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، واضع أصول البلاغة، له مؤلفات منها : المغني، والمقتصد، ودلائل الإعجاز، وإعجاز القرآن، وأسرار البلاغة، والعمدة، وغير ذلك من الكتب الأخرى، وكانت وفاته عام 471هـ. انظر ترجمته في طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي ج 3 ص 242 وفي مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ج 1 ص 143 وفي مرآة الجنان لليافعي ج 3 ص 101 وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 48. وفي فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ج 1 ص 297، وفي بغية الوعاة للسيوطي ص 310.

(5) تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن الكافي السبكي، ولد في القاهرة عام 727هـ، من اكابر فقهاء الشافعية، له مؤلفات منها : جمع الجوامع، وطبقات الشافعية الكبرى، والطبقات الوسطى، والطبقات الصغرى، ومعيد النعم ومبيد النقم، والأشباه والنظائر، وغير ذلك من التصانيف المفيدة، وكانت وفاته رحمه ا بدمشق بداء الطاعون عام 771هـ. أنظر ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجرج 2 ص 425 وفي الأعلام للزركلي ج 4 ص 184 وفي حسن المحاضرة للسيوطي ج 1 ص 182. وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 411 رقم الترجمة 892، وفي فهرس الفهارس لعبد الحي الكتاني ص 1037 رقم الترجمة 586، وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج 11 ص 108. وفي شذرات الذهب لابن العماد ج 6 ص 221.

الله يعلم أنني ذو وهـمـــــــة تأبى الدناءة عفة وتظرفـا
لم لا أصول عن الورى ديباجتي وأريهم عز الملوك وأشرفا
أأريهم أني الفقير إلـيـهـم وجميعهم لا يستطيع تصرفا
شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله عجز أقام بحامليه على شفا
فاسترزق الله الذي إحسانـه عم البرايا عفة وتلطـفـا
والجأ إليه تجده فيما ترتـجـي لا تعد عن أبوابه متحرفـا

وقد ذيلت هذه الأبيات بقولي ارتجالا هنا :

واستعمل الأسباب في استرزاقه واشغل يديك بحرفة لتشرفـا
لا تجعل العلم الشريف وسيلـة تقضي بها ما رمته ممن جفـا
فالناس قد جعلوا عليهم عالـة من لا احتراف له ولو علم الخفا
إياك إياك التملـق للـذي ترجوه واسطة لكي تتوظفـا
وارفع مقامك عنه بالعمل الذي تختاره لك حرفة متعففـا
واسلك طريق توسط في كل ما تسعى إليه ولا تكن متطـرفـا

فإن كل من كان من الطلبة والعلماء في غنى عن التملق على أبواب ذوي المراتب للتحصيل على مرتب، بالإعراض عنه بما يشتغل به من حرفة يرتزق بها من غير توقف عليهم، لكي يكون معظم الجانب عند الأباعد والأقارب، وإلا كان أزهد الناس فيه جل أقاربه وجيرانه، وهذا أمر معروف لدا من لم يكن موظفا في وظيف، ويزداد تعلق قلبه بالحبال الواهية، والمواعيد العرقوبية، حتى ينقطع بسيف السوف، ويرجع بخفي حنين بين رجاء وخوف، وقد يتقدم عليه غيره وهو عليه غير مأسوف.
وقد عرف المنتصتون المنصفون من حثنا على تعلم الصنائع وتعاطيها من طلبة العلم، أنه لم يكن فيه شيء من التزهيد فيه، ولا في أي خطة شريفة، وليس في تعلمه لنيلها بين ذوي الهمم المنيفة حط من قدره، وما أحسن المراتب ذات المرتب لمن انتصب فيها عفوا من غير طلب، ليعان عليها طبق ما ورد في الأثر.

على أن الوظائف كيف ما كانت باستغلال مرتباتها لا يستحقها إلا ذووا العلم، ولا ينبغي أن تنال إلا بالعلم، وقيمة الشخص عند ذوي الفهم إنما هي بقدر ما معه من العلم، وقد غلط من ظن أنها تنال بغير العلم لمن حصل عليها بواسطة، أو قاتل بسعد فظهر بها إلى ما شاء الله، فإن كل ذي مرتبة أو وظيف كيف ما كان مع جهله هو فيه كلابس حلة زور، وليس له من ذلك سوى الظهور القاصم للظهور، مادام السعد مساعدا له في استغلال مرتبها، وهو غير مستحق لها، وليس بعجيب

إعطاء الشيء لغير مستحقة، كما قال العلامة المكودي(6) في شرحه للألفية : فيمنع المستحق للشيء ويعطى لغيره، وقد ذكر أحد شيوخنا رحمهم الله أنه كان مستحقا لوظيف وقدم عليه فيه غيره ممن لا يستحقه فقال ذلك.

ومعلوم أن الوظيف المرتب عليه الأجرة لا يمكن المزاحمة فيه باستغلالها لاستقلال الموظف فيه دون غيره، إلا إذا قضت المصلحة لدا المسند له التوظيف، وذلك لا يتأتى لمتعدد الطلبة في وظيف:

وللسياسة حكم غير منتقد	لدا ذوي العقل لا ولا بمنتقض
فرب مرتبة للمستحق لها	لم يعطها وبها لمن عداه قضي

ولا يمكن توظيف كل مستحق لوظيف إذا كان غيره من المستحقين أيضا موظفا فيه، والغالب في الوظائف أنه لا ينتصب أحد في أي وظيفة منها إلا بعد فراغها من الموظف فيها. فإن القضاء مثلا كما يقوله الفقهاء صناعة، ولكن لا يتوظف فيه كل المستحقين له في حال تولية أحدهم في خطته، لأن المستحقين للقضاء لا يكونون كلهم قضاة في آن واحد، في محل واحد، وهكذا الشان في غيره من الوظائف، فإن السعد خادم لمن حل فيها(7).

وكم في العرس أبهى من عروس	ولكن للعروس السعد ساعد

---

(6) عبد الرحمان بن علي بن صالح المكودي، إمام النحاة في عصره، ينتسب إلى بني مكود إحدى قبائل هوارة الذين مستقرهم فيما بين فاس وتازة، وهو آخر من درس كتاب سيبويه بفاس، وبعده صار العمل على ألفية ابن مالك، ومن مصنفاته : شرح مقدمة ابن أجروم، والبسط والتعريف في علم التصريف، منظومة، وشرح المقصود والممدود لابن مالك، ونظم المعرب من الألفاظ، وشرح ألفية ابن مالك، والمقصورة في مدح النبي صلى ا عليه وسلم، نحو 300 بيت، وغيرهم، وكانت وفاته رحمه ا بفاس في 11 شعبان عام 807هـ، ودفن بحومة الأصدع المعروفة الآن بفندق اليهودي، قريبا من باب الجيسة، إحدى أبواب مدينة فاس، أنظر ترجمته في جذوة الإقتباس ص 403 رقم الترجمة 410، وفي سلوة الأنفاس لابن جعفر الكتاني ج 1 ص 187، وفي النبوغ المغربي لعبد ا كنون ج 1 ص 210، وفي الضوء اللامع للسخاوي ج 4 ص 97، وفي الأعلام للزركلي ج 3 ص 318.

(7) يشير رحمه ا إلى أن الوظائف العمومية لا يمكن لها استيعاب جميع ذوي الكفاءات الطالبة للتوظيف، لأن طاقتها محدودة قياسا مع الحرف والصنائع التي هي في حد ذاتها قادرة على توفير فرص العمل والنجاح لأكثر عدد ممكن من المتعلمين، فهم لا محالة جديرون بتطويرها والمضي بها نحو الرقاء والإزدهار، وبهذا يمكنها أن تعطي أكثر في جميع مجالاتها المتنوعة، وبالتالي فإنها بذلك تكون قد وضعت حدا للبطالة وما يتبعها من الفقر والمسألة والحاجة، ومن جراء ذلك ستستفيد الدولة وسيمكنها التغلب على مصاعب مستعصية أهمها إيجاد فرص العمل لآلاف الطلبة من ذوي المستويات العلمية المتفاوتة. والنقطة الأساسية التي يرمي إليها العلامة سكيرج من خلال هذا الموضوع هي إزالة العقليات المتخلفة التي تحصر عمل المتعلم في وظائف معدودة لا يمكن تعديها إلى غيرها، كالقضاء والعدالة والحسبة وما إلى ذلك. وفي الوقت نفسه تدعو إلى فتح آفاق جديدة يمكنها أن تساير التقدم الصناعي الهائل عند الدول الاستعمارية.

وصاحب الحرفة الذي يسترزق بها مع علمه أولى وأفضل وأكمل من جاهل، أو قريب من جاهل في الإسترزاق بالعلم أو بحرفة عن غير علم، أو بخطة لا يستحقها، على أن المحترف كيف ما كان منوه بشأنه في حديث : إن الله يحب العبد المحترف ويكره البطال(8)، وهو الذي لا حرفة له، أو يتركها تكاسلا عن العمل.

ومع ذلك فالعالم الذي يأخذ الأجرة مثلا على التعليم بالشرط لا ينالها إلا بسعد يلاحظه في التوظيف، وقليل من يشترطون الطلبة في محالهم، ولا ينتقد علينا في هذا الذي قلناه إلا من لا علم له بتردد كثير من أهل العلم على الأبواب في طلب الوظيف، الذي لم يساعدهم الدهر على الإحراز عليه. ولو كان مع كل من يتشوف منهم لمرتبة علم بصنعة من الصنائع الذي تقبل المشاركة مع من قام بها من نحو فلاحة وتجارة وحدادة ونجارة لاكتفى بها في الإسترزاق، مع رفع همة، حتى تقول له العناية: هات يدك.

فالإنتقاد على من ترك تعاطي الحرف من طلبة العلم يعد من قبيل النصيحة لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم، كما أن الإنتقاد على المؤلفين من مسامرين وغيرهم فيما ألفوه، والتنبيه على ما خالفوا فيه قاعدة من القواعد العلمية عن سهو أو غفلة أو جهل، والكمال لله، ولا ينقص من قدرهم إذا لم يقفوا فيه مع حظ النفس، أو عاندوا بما يلحقهم بصاحب الجهل المركب في المعنى والحس، كما تقدم لنا الإشارة إليه.

ولا يستنكف من الإنتقاد عليه في أخطائه إلا من يريد أن يزاحم الأنبياء في عصمتهم من الخطأ، أو يرى لنفسه الشفوف على غيره في الأخذ والعطاء.

ونحن نحب من ينتقد الأشياء بمعيار العلم الصحيح، وما يؤيده النص الصريح، وأما المنتقدون بغير علم فإنهم عند العارفين غير معذورين، وقد قيل في حق مثلهم : تكلموا تعرفوا، ولو سكت من لا يعلم لاستراح وأراح عند من يفهم، ولحصل التفاهم في التعلم والتعليم بين الخصوص والعموم، كما هو معلوم، ولعرف الجاهل قدر العالم بما هو جاهل له من سائر الفنون التي لا تحصى ولا تحصر، فإن العلم بحر عميق القعر كما قيل :

لن يبلغ العلم جميعا أحد	لا ولو مارسه ألف سنـة
إنما العلم عميق بحــره	فخذوا من كل فن أحسنه

على أن كل علم لا يخلوا المحققون له من معترضين عليهم إظهارا للحقيقة، والحقيقة بنت البحث :

وكم من عائب قولا صحيحا	وآفته من الفهم السقيم

(8) ذكره الحافظ السيوطي في الجامع الصغير، ج 1 ص 75 وعزاه للطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان.

وكثيرا ما طرق المسامرون أبواب فنون شتى، وما سمعنا من انتقد ما هو جدير بالإنتقادات، تنبيها للعالم وتعليما للجاهل كما قلناه.

ولا يعد ذلك تهاونا من إدارة الإذاعة، بل هو من باب إطلاق الحرية للمسامرين في اختيارهم لموضوعات مسامراتهم، من غير تحجير عليهم في تبليغ ذلك للمستمعين مما يقبل انتقادا ومالا يقبله. وبمثال واحد في هذه المرة من الإنتقادات المرة تظهر الصور الشوهاء المتجلية على مرآة المذياع، مما يتنفس منه الأدباء الصعداء، وهو ما يسمع من التنويه ببعض القصائد، وهي مختلة أو في غاية السقوط كلها أو بعضها، فيأخذنا الخجل حيث يكون المسامر مغربيا، وذلك مخافة تشويه سمعة أدباء المغرب لدا السامعين منهم ومن غيرهم من أدباء العصر، وتسجيل ذلك السقوط الأدبي على قائليه مدا الدهر(9).

ويسوءنا التنويه بما لا يستحق التنويه، فينسب العالم بذلك نسبة الجهل لهذا المسامر، ولأهل قطره الذين سكتوا بعدما له أنصتوا، وطار طائره على جناح الأثير، وعلى أعمدة الجرائد، وهو يستحق النكير، ولو تفقه وتعلم من لا يحسن القرض وعلم العروض لم يكن ضحكة فيما عنه علماء ذلك يسمعون، وقد قال بعض الناصحين :

لا تعرضن على الرواة قصيدة | ما لم تكن بالغت في تهذيبهـــا
إن لم تهذبها وشاعت بينهـــم | قالوا وساوس جئتهم تهذي بها

وذكر عن بعض الأمراء أنه قال من إنشاده لبعض الأدباء، مما نظمه من سخيف القول وظن أنه أتى بشعر، وقال له اسمع نظمي لأجيزك إذا أجزته، فقال له الأديب : أصلح الله الأمير وبارك في نباهته، قل لي شعرك فإني ممتثل أمرك، فقال :

أيها الفقيه المزدغي(10) | عن صلاتك لا تغفل

---

(9) يشير رحمه ا إلى أن النقد يجب أن ينبني على قواعده السليمة المصطلح عليها، وأما النقد من أجل النقد فلا شيء من ورائه إلا الإرهاق والتعب، وهو من باب قولهم خالف تعرف. وعلى الناقد أن تتوفر فيه الكفاءة، لأنها بمثابة الميزان والصنوج التي لا تعرف إلا من خلالها المقادير والأوزان، ويرى العلامة سكيرج أن الأدب المغربي زاهر، وسمعته كبيرة في شتى المحافل العربية، لكنه رحمه ا يبدي تخوفه من النقد غير البناء الذي يسيء من غير قصد لهذه السمعة التي بناها أكابر العلماء والمفكرين والأدباء، والحل في نظره هو بناء النقد على أسس فعالة بعيدة عن التهور والإنحياز، ولا يكون ذلك إلا بإتيان البيوت من أبوابها، مع اشتراط الكفاءة والموهبة الكافية لذلك.

(10) الفقيه العلامة محمد بن يوسف بن عمران المزدغي، من علماء فاس من مصنفاته : أنوار الأفهام في شرح الأحكام، ولي الخطابة والفتوى بجامع القرويين بفاس مدة غير قصيرة، وكانت وفاته ليلة الأحد 14 ربيع الأول عام 655هـ، ودفن بروضة سلفه من باب الفتوح بفاس. أنظر ترجمته في شجرة النور الزكية لمخلوف ص 199 رقم الترجمة 676. وفي جذوة الإقتباس لابن القاضي ص 222 رقم الترجمة 190، وفي سلوة الأنفاس للكتاني ج 2 ص 38.

فقال له الأديب : إن هذا القول ليس بشعر، وهو ليس بمنظوم، فقال الأمير ويحك تذم كلامي، وتخسر ميزان نظامي، وأمر به إلى السجن، ثم راجع الأمير نفسه في شعره البديع، وظهر له أن المصيبة فيه جاءته من ناحية الضرب للقافية، فزاد فيه ما يستحق الضرب على القافية، فأحضر السجين لديه وقال له : نظرت فيما قلت، وظهر لي أن الصواب معك لتسمع مني ولا يخيب فيك ظني، فقال : قل، فقال :

أيها الفقيه المزدغي عن صلاتك لا تغفل غ

فقال له الأديب : آه ثم آه ردني لحبسي، قبل أن تفيظ نفسي، وأفقد حسي، وهكذا الشأن فيمن يتعشق أن يكون في زمرة قوم لا يحسن ما يتقنون ولا يذعن لتعلم ما يعلمون، ولا يقبل النصح ممن ينصحون، ويظن أنه على علم وهم له يحسدون، فهو لا يقبل التعلم ولا التفهم إلا إن أخذت العناية بيده بالتوفيق لنيل مقاصده.

كما وقع في قضية حدثني بها مفيدنا العلامة الرئيس سيدي الحاج عبد الكريم بنيس(11) رحمه الله بأنه كان في عنفوان شبابه يتعاطى التجارة بمكناسة الزيتون، في قراض بينه وبين شيخ الجماعة بفاس العلامة سيدي الحاج محمد بن المدني كنون(12) صاحب اختصار تعليق العلامة الرهوني على شرح الشيخ عبد الباقي الزرقاني رحم الله الجميع، وكان له بيت بالمدرسة كباقي طلبة العلم بها، وقد كان هناك مع الطلبة شريف زرهوني يجتمع عليه الطلبة لينشدهم من شعره الذي كان مفتتنا به وهو في غاية السقوط، فيضحكون من حيث يظن أنهم يستحسنون ذلك، مع جهله بعلم العروض. وقد دخلت الغيرة عليه من شيخنا المذكور لكونه شريفا، مع عدم شعوره بسخريتهم بشعره، وهو من جهله المركب راكب فيه على شر مركب، وكلما رام نصيحته خاف فضيحته، حتى دعته النجدة للأخذ بيده، فدعاه إلى بيته من المدرسة واختلى به، وأبدى له ما يختلج في صدره من الغيرة عليه، فكاد الشريف أن ينهض في وجهه، واتهمه بالحسد، فيما لهم أنشد، فلاطفه الشيخ إلى أن قال له : الدليل على صدقي لك في نصيحتي أن تتحقق بأن الشعر له ميزان خاص بأوزان مخصوصة، فهل لك علم به لتقول لي رعاك الله من أي بحر أبياتك، وما هي التفاعيل التي وزنت عليها، وكيف تقطعها، ومن أي عروض وضرب منها، وما هو الزحاف الذي يسوغ في أجزائها منفردا أو مزدوجا، وما هي العلة الملازمة

---

(11) سبق التعريف به في ج 1 ص 40 من هذا التأليف.

(12) العالم العلامة الشهير، والفقيه الحافظ الكبير، أبو عبد ا سيدي محمد بن المدني كنون، ولد بفاس، وبها درس العلم على أكابر علمائها كسيدي الوليد العراقي، والفقيه ابن عبد الرحمن، والطالب ابن الحاج، وأحمد المرنيسي، وعبد السلام بوغالب، وغيرهم. وله رحمه ا تآليف كثيرة أشهرها كتاب الإختصار على حاشية الرهوني على بناني على مختصر الشيخ خليل، وكتاب التسلية والسلوان لمن ابتلي بالإذاية والبهتان، ونصيحة النذير العريان في التحذير من أهل الغيبة والنميمة والبهتان، ونصيحة ذوي الهمم الأكياس فيما يتعلق بخاطة الناس، والدرر المكنونة في النسبة الشريفة المصونة، وغير ذلك من التآليف الأخرى، وقد أخذ رحمه ا الطريقة الأحمدية التجانية عن الولي الصالح البركة سيدي عبد الوهاب بن الأحمر الفاسي الأندلسي، لكنه لم يكن من المتظاهرين بها، ولدي من وثائقه ما يثبت ذلك لمن أنكره. وهو بإجماع الكثير من المحققين واحد من أكابر علماء العالم الإسلامي في وقته، توفي رحمه ا ليلة الجمعة فاتح شهر ذي الحجة الحرام عام 1302هـ. أنظر ترجمته في النبوغ المغربي لعبد ا كنون ج 1 ص 297، وفي معجم الشيوخ لعبد الحفيظ الفاسي ج 1 ص 167، وفي الأعلام للزركلي ج 7 ص 94، وفي معجم المطبوعات لإليان سركيس 716، وفي شجرة النور الزكية لمخلوف ص 429 رقم الترجمة 1692، وفي سلوة الأنفاس للكتاني ج 2 ص 364، وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 361، وألف في حقه العلامة سيدي محمد بن محمد المشرفي كتابا سماه : الدر المكنون في التعريف بشيخنا محمد كنون.

لها، ونحو ذلك من قواعد الفن، فسقط ما بيد الشريف، وتحقق شيئا ما مما نصحه به، ولكن بقي على شك من أمره بما يراه من تنويه أولئك الطلبة به.

ثم زاد الشيخ في ملاطفته بإبداء النصيحة له مرارا مدة أيام، وطلب منه إحضار شيء من نظمه ليطلعه على اختلال وزنه، فأتاه بآخر ما نظمه من مستملحاته عند الطلبة بزعمه، فتبين له منها ما صار يدخل به التنبه عليه شيئا فشيئا، حتى تحقق بالنصيحة، فأخذ عنه الفن بالتلقين، ورجع من الشك لليقين، واستكتمه الشيخ بترك التظاهر بالمعرفة، إلى أن صار على بصيرة من أمره، مجيدا في قرض شعره، فأظهر من هنيهاته لأولئك الطلبة ما بهرهم به، حتى قالوا له من فرط الإعجاب : شاعر كذاب، ما هذا بشعرك المألوف، وأجلسهم بين يديه، وصيرهم ضحكة لديه، وقال لهم : ثكلتكم أمكم فإني قرأت علم العروض، وقمت بواجبه المفروض، فدعوا عنكم السخرية، في أموركم السرية والجهرية، فعرفوا قدره، وشكروا الشيخ فيما ملأ به من العلم صدره، وكم لهذا الشريف من نظير، وقل من يعمل عمل شيخنا المذكور، وهو عمل مشكور، والله يعظم له به الأجور.

فالمتعين عن من لا يعرف علم العروض والقافية، وبالأخص علم القرض أن لا يدعي الشاعرية، ويجتنب قول الشعر بالكلية، لا في البسط ولا في القبض، ولو كانت له سجية تهيم به في كل واد، ويريد بها مزاحمة الشعراء في كل ناد(13).

فالشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
يريد أن يعربه فيعجمه

ولا يعتمد على سجيته بدون علمه متمسكا بقول بعضهم :

الشعر لا تدنيه خزرجيـــة وإنما يكون بالسجية

(13) الالتزام بالعروض من مميزات الشعر الواجبة عند أهله، وليست العروض وحدها كفيلة بقرض الشعر، بل يحتاج الشاعر من أجل ذلك لأدوات متعددة يستطيع من خلالها أن يعبر عما يريد التعبير عنه بجمالية النظم ورونقه، ولتسهيل ذلك على الطلاب أنشأ العلامة سكيرج نظما جمع فيه جل هذه الأدوات التي يحتاجها الشاعر لبناء قصيدة من المستوى الرفيع المقبول، ولإتمام الفائدة عمل رحمه ا على شرح هذا النظم تحت عنوان : يتيمة الدر في قرض الشعر، غير أنه لم يتمه لانشغاله عنه بتآليف أخرى.

فلا يعد شعرا ما خالف أوزان العروض، لأن مراعاتها مما يراه أصحاب فنه من الفروض، والعجب إنما هو ممن لا إلمام له بالعروض، ويستدل على صحة الوزن المنظوم بالنغم التي يجري بها الصوت في السماع، بتطريب الألحان التي يحسن توقيع الموسيقى على أوزان طباعها، ويخفى عنه ما عيب فيما هو مرتكب من زيادة ونقص، ولقد عيب على الفرزدق في زيادة حرف الواو الساكنة من أولئك في قوله :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم | إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وعيب على الشاعر في زيادة الألف من أنا في قوله :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا | يغنيك محموده عن النســـب
إن الفتى من يقول ها أنـــا ذا | ليس الفتى من يقول كان أبي

وأنى لمن لا خبرة له بفن العروض، من أن يعرف زيادة هراوة تلك الواو من أولئك، وعصى الألف الممتد في ذلك الضمير، وقد أراد بعضهم الإعتذار عن سقوط الوزن بهما من كون (أولئك) فيها لغة بحذف الواو، وحذف الألف من قوله (ها أنا ذا) لدى من ينتبه لذلك.

والفرزدق ممن يستدل بكلامه في الشعر وغيره، وفي هذا الإعتذار ما فيه، وقد تعرضت للتنكيت على من يجعل الغنة ميزانا يزن بها المنظوم في علم العروض في لاميتنا المعنونة بنفع العموم فقلت فيها :

كن للعروض إذا شعرت معتبرا | أوزانه وعن الميزان لا تمـــل
كم مدع يخسر الميزان من عمه | ولم يقم وزنه بالقسط في عمـــل
ولم يبالي بما قد عيب منــــه إذا | ما قيل في قوله نقص بلا وجـل
فيأخذ النغم التي توافقـــــــــه | ويستدل بها في وزنه الجـلــــل
وربما ساعدته ساعة حـضــرت | بها أماثله في الجهل للعلـــــــل
يؤيدون مقالــــة بغنـتـهـــــــم | وليتهم علموا ما عيب من خلـل

ولما عسر على بعض الأدباء أن يأتوا بمثل ما أتى به الشعراء في ضروب القصائد والمحسنات البديعية المستحسنة منذ عهد قديم، خرج بعضهم من ضيق التزام ذلك إلى سعة النظم الغير العربي في موازينهم(14) التي عليها ارتكاز بحور دوائر الشعر الذي نزه عنه النبي صلى الله

(14) عبر رحمه ا من خلال هذه الفقرة عن رأيه الصريح فيما يخص الشعر الحر الذي لا يخضع لقيد التفاعيل العروضية، فبين أنه عجز من المتأخرين عن التعبير من نفس المنبر الذي عبر منه شعراء الجاهلية وغيرهم من الشعراء بعدهم بأحسن القصائد وأجملها، والمشكلة اليوم في نظره هي عدم قدرة الجيل الحديث عن التعبير من منطلق التقييد، وذلك راجع لاختلاف التكوين والبيئة ونزول المستوى العام، وهو ليس بشعر عنده، ولكنه نثر وسجع.

عليه وسلم، وما هو عليه السلام بشاعر، ولا يخرج الشخص من ربقة التقليد بكون القرآن الكريم ليس بشعر إلا بمعرفة قواعد علم العروض.

وللشعر ميزان يسمى عروضه بها النقص والرجحان يدريهما الفتى

وقد تفنن أهل الأندلس لما ملوا موازين العروض، وبعبارة أخرى لما زاحمهم العامة في النظم واستحسنوا أوزانهم الموسيقية المحدثة، فاخترعوا تلك الفنون السبعة(15) المعروفة عند الأدباء، ولم يقع من أحد منهم تسمية ذلك بشعر، ولا طعنوا في الشعر العربي المحفوظ لديهم حتى لا يسمى غيره شعرا، وهو صعب على من يريد تقليد العرب فيه إن لم يكن ذا سجية فيه، قال الفرزدق(16) فيما يوثر عنه : لنتف لحيته في بعض الأحيان أهون عليه من قول شطر واحد من الشعر، وذلك لعدم حضور السجية التي تفور مرة وتغور أخرى.

وقد وقع امتحان لكثير من الشعراء بحصرهم عن قوله في وقت احتياجهم إليه، سيما عند اختبارهم، مثل ما وقع لصاعد(17) حين أهديت للأمير أبي فارس وردة في غير إبانها، غير منفتحة الأكمام، فاستنشد شعراءه، فقال صاعد بمحضر كتاب حضرته :

أتتك أبا فـــارس وردة تعطر الأنفاس أنفاسها

كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها رأسها

فحسدوه على ذلك ونسب للإنتحال، وحصر عن القرض حتى اختبره الأمير بقول شيء آخر من الشعر الطري، وتحقق بقول الفرزدق المتقدم في تلك الحال، حتى هجم عليه الإرتجال،

(15) الفنون السبعة، استنبطها أدباء الأندلس، ولهم فيها شأن كبير، وهي : الدويت، والموشح، والسلسلة، والموال، والقوما، وكان وكان، والزجل، ولكل من ذلك ضوابط لابد من مراعاتها في الوزن والنطق لحنا وتلحينا.

(16) همام بن غالب بن صعصعة الملقب بالفرزدق، من رواد الشعر العربي، ولد بمدينة البصرة سنة 20 هـ ونشأ فيها، وتجول في البادية فتطبع بطبائعها، وكانت وفاته رحمه ا سنة 114هـ أنظر ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ علي فاغور ص 5 وفي كتاب الأغاني للأصفهاني ج 9 ص 324 وفي الأعلام للزركلي ج 8 ص 93 وفي معاهد التنصيص للعباسي ج 1 ص 45.

(17) صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي البغدادي : أديب لغوي قصاص، ولد بالموصل، ونشأ ببغداد، وانتقل إلى الأندلس، وبها توفي سنة 417هـ، أنظر ترجمته في بغية الوعاة للسيوطي ص 267 وفي لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج 3 ص 160، وفي الأعلام للزركلي ج 3 ص 186 وفي نفح الطيب للمقري ج 2 ص 726 وفي بغية الملتمس لابن عميرة الضبي ص 306.

فأخرجه منصورا من ذلك المجال، فسقط ما بيد حساده، الذين بالغوا في عناده، كما أشار الشمقمقي(18) لقضيته في قافيته فقال :

واكتم عن الحساد كل نعمة	كم فاضل بكأس مكرهم سقي
فصاعد على مديـــح وردة	أصبح منحطا بقول سهـــوق

فنصحا لمن لا يعرف قرض الشعر ولديه سجية أن يتعلم العروض، ولا يتظاهر بالشاعرية قبل تحقيقه مع فن القافية(19)، فإن سقوط الأوزان مما يخسر الميزان، ويوقع في السخرية بين الأقران، وهكذا الشأن في كل من تصدى في الشيء بغير علم، وكفى بالعلم فخرا أن كل شخص يحب أن يكون عالما.

وقد أنعم الله على إيالتنا المغربية بتشييد مدارس التعليم فيها بكل ناحية، وانفتحت أبواب العلوم العصرية بفضل اعتناء ملكنا الأمجد، مفخرة السلاطين، ومرغم أنوف الشياطين، مولانا أمير المومنين، سيدي محمد أيده الله وأدام سعادته في صعود السعود، بما تقر به العيون من نيل كل مقصود، في أنجاله الكرام خصوصا، ورعيته عموما، وحسبنا الله ونعم الوكيل من الجهل الذي يستوي عند صاحبه النفع والضر، ويرمي بنفسه للتهلكة بترك الشكر، والنبي (ﷺ) يقول : من لم يشكر الناس لم يشكر الله، والله يوفقنا لما فيه رضاه آمين.

أحمد سكيرج

أمنه الله

---

(18) العلامة الأديب أبو العباس أحمد بن الونان الملوكي الفاسي، من أكابر شعراء المغرب في وقته، له أرجوزة مشهورة بالشمقمقية، وهي تحتوي على كثير من الفنون الأدبية والأغراض الشعرية، مثل الغزل والنسب والوصف والحماسة والمدح والهجاء والحكم والأمثال وأيام العرب وأخبارها وعوائدها وأحوالها، وعدد أبياتها 275 بيتا، مدح بها سلطان المغرب وقتذاك المولى محمد بن عبد ا ، وتوفي رحمه ا سنة 1187هـ انظر النبوغ المغربي في الأدب العربي للعلامة عبد ا كنون ج 1 ص 316، وانظر ترجمته كذلك في ذكريات مشاهير رجال المغرب لنفس المؤلف، الرسالة الخامسة عشر، وفي إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 3 ص 344 وفي الأعلام للزركلي ج 1 ص 243.

(19) قال العلامة سكيرج في كتابه نيل الأرب في أدب العرب : علم القوافي هو من تتمة علم العروض، وهو علم يبحث فيه عن تناسب وعيوب أواخر الأبيات الشعرية، ومعنى القافية في نظر محققي هذا الفن التابعة لما قبلها، فالبيت الواحد ليس بشعر، ولذلك لا يوجد في القرآن الكريم ولا في كلام الرسول (ﷺ) أكثر من بيت واحد متزنا.